بدعة التجسيم

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

إنَّ العقيدَةَ الإيمانيَّةَ الحقَّةَ حُورِبَتْ عبرَ العصورِ لأنَّها كانَتِ الرَّائدةَ في مواجهةِ بِدَعِ أهلِ التَّجسيمِ والتَّعطيلِ، وبما أنَّ الأسئلةَ الْمُشَكِّكَةَ لا تَنتهي، فإنَّنا مُلتَزِمُونَ بالإجابةِ بشكلٍ دَوريٍّ عليها لإيضاحِ الحقيقةِ الصَّافيةِ.

لقد اختلطَ الأمرُ على الضُّعفاءِ فَظَنُّوا أنَّ تجلِّي اللهِ يعني حُلُولَهُ في الأجسامِ! وهذا مُحَالٌ. لكنَّ السَّطحيَّةَ التي اعْتَادَوا عليها في تناولِ الأمورِ الدِّينيَّةِ جَعَلَتهم لا يَفقهونَ معنى التَّجلِّي، ولا يَفهمونَ دلالاتِ السُّوَرِ العظيمةَ في القرآنِ الكريمِ، وكأنَّما وقعَ عليهم قولُهُ تعالى: (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون).

إنَّ التَّجلِّي في فكرِنا هو للبُرهانِ على وجودِ الحقِّ تَعَالى من خلالِ الدَّليلِ العقليِّ والدَّليلِ الحسِّيِّ، وهكذا فإنَّ الدَّليلَ العقليَّ والدَّليلَ الحسِّيَّ يُبَرهِنانِ على وُجودِ الحقِّ تعالى في حالِ التَّجلِّي لأهلِ العقلِ وأهلِ الحسِّ.

فالحقُّ تعالى لَمَّا شَاءَ تَكوينَ الشَّيءِ كوَّنَهُ بقولِهِ تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، ثمَّ أرادَ الخلقَ فكانَ أمرُهُ مُطاعًا لقوله تعالى: (اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ)، ثمَّ تَجَلَّى لأهلِ العقلِ ولأهلِ الحسِّ بدليلِ قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ)، عِلمًا أنَّه في حَقيقتِهِ لا يقعُ تحتَ إدراكَ العقلِ والحِسِّ، وهنا نؤكِّدُ أنَّهُ لم يَتَجلَّ بغَيرِهِ وإلاَّ وقعَ القائلُ في الحلُولِ والتَّجسيمِ، والدَّليلُ على ذلكَ قوله تعالى: (أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، فالتَّجلِّي إذًا ليسَ حُلولاً ولا تَجسيمًا، إنمَّا هو دَليلُ الوجودِ لقوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ).

ونحنُ نُقِرُّ بوجودِ الحقِّ تَعَالى ونُصرِّحُ بالألفاظِ مع عِلْمِنا بقُصُورِها لقولِ الإمامِ علي زينِ العابدين (علينا سلامُهُ): (إلهي لولا الواجبُ من قَبُولِ أمركَ لَنَزَّهْتُكَ عن ذكري إيَّاكَ، على أنَّ ذكري لكَ بقَدْري لا بقَدْرِكَ، وما عسَى أن يَبْلُغَ مِقْدَاري حتَّى أُجْعَلَ مَحَلاً لِتَقديسِكَ، وَمِن أعظمِ النِّعَمِ علينا

جَرَيانُ ذِكْرِكَ على أَلْسِنَتِنا)، فَمعرفَتُنا لوجودِ الحقِّ وإفرادُنا لِذَاتِهِ عن كُلِّ صِفَةٍ مُدْرَكَةٍ وَجِهَةٍ مَحْدودةٍ، تَجْعَلُنا نُخْرِجُهُ عن الحَدَّين؛ حَدِّ التَّشبيهِ بِخَلقِهِ وحَدِّ الإنكارِ لِوجودِهِ، تَعَالى اللهُ عن حَدِّ التَّشبيهِ وَحَدِّ التَّعطيلِ، لأنَّ مَن لَمْ يُخْرِجْهُ عن الحَدَّين يكونُ قد أدرَكَهُ وَحَصَرَهُ وشَبَّهَهُ بِخَلقِهِ، فهل يُعقَلُ أنَّ اللهَ إذا أَنْعَمَ علينا بنعمةِ معرفةِ وجودِهِ أن نَجعلَهُ من جِنْسِ خَلقِهِ ونُشَبِّهَهُ بهم ونَحْصُرَهُ في الأجسامِ معاذَ اللهِ؟

الْمُؤمنُ الْمُوَحِّدُ يُنَزِّهُ الحقَّ تعالى في مُواجهَتِهِ لأهلِ التَّجسِيمِ، وقد وردَ عن الفيلسوفِ العارفِ ابنِ شُعبةَ الحرَّانيِّ قوله: (معرفةُ اللهِ في الأبدانِ كَعِبَادَةِ الأوثانِ). فَلَمَّا وَصَمَهُ أهلُ التَّجسيمِ بالأمِّ والأبِ والأولادِ وَجَبَ تَنزيهُ ذاتِهُ كما وَرَدَ بقوله: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، ولَمَّا وَصَمُوهُ بالزَّوجةِ وَجَبَ تنزيهُ ذاتِهُ كما قال في كتابهِ: (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا)، ولَمَّا جَعَلوا له شريكًا وَجَبَ تنزيهُ ذاتِهُ كما قالَ في كتابهِ: (لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

فلا يقعُ تحتَ التَّجسيمِ مَن كانَ ولا مَكانَ ولا دَهرَ ولا زَمانَ ولا سُكونَ ولا حَركةَ ولا جَوهرَ ولا عَرضَ ولا حِسَّ ولا جِنْسَ، بدليلِ ما جاءَ عن الإمامِ جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى لا يُوصَفُ بزَمانٍ ولا مَكانٍ ولا حَركةٍ ولا سُكونٍ، بل هُوَ مُوجِدُ الزَّمانِ والْمَكانِ والحركةِ والسُّكونِ، تَعَالى اللهُ عمَّا يَقولون علوًّا كبيرًا).

ولا يقعُ تحتَ الحصرِ مَن لا يَسَعُهُ مَكانٌ ولا يَحصُرُهُ زَمانٌ ولا يَخْتَلِجُ بالأوهامِ ولا تُحَصِّلُهُ مَعرفةُ الأفهامِ، وقد سُئلَ الإمامُ جعفر الصَّادقُ (علينا سلامُهُ): هل يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في مكانٍ؟ فقال: (سُبحانَ اللهِ وتَعَالى عن ذلكَ، إنَّه لو كانَ في مكانٍ لَكَانَ مُحْدَثًا، لأنَّ الكائنَ في مكانٍ مُحْتَاجٌ إلى الْمَكانِ، والاحتياجُ من صِفَاتِ الْمُحْدَثِ لا مِن صِفَاتِ القَديمِ).

ولا يقعُ تحتَ الإدراكِ مَن لا يَقَعُ عليهِ اسمُ شَيءٍ وليسَ لَهُ شَبيهٌ ولا نَظيرٌ ولا مَثيلٌ ولا عَديلٌ، حيث سُئلَ سيِّدنا رسولُ اللهِ محمَّد (ص): ما رأسُ العلمِ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: (معرفةُ اللهِ حَقَّ مَعرفتِهِ). قيل: وما مَعرفةُ اللهِ حَقَّ مَعرفتِهِ؟ أجابَ (ص): (تَعرِفُهُ بلا مِثْلٍ ولا شَبَهٍ ولا نِدٍّ، وأنَّهُ أَحَدٌ ظاهرٌ باطنٌ أوَّلٌ آخِرٌ لا كُفوَ لَهُ ولا نظيرَ، فَذلكَ حقُّ مَعرفَتِهِ).

فَسُبحانَ اللهِ الذي سَمَا عن مَبْلَغِ أقوالِ الوَاصِفين، وَعَلا عن نُطقِ أفواهِ العَالِمِين، وَخَفِيَ بِكُنْهِهِ عن أبصارِ النَّاظرين، فليستِ الأبصارُ لَهُ بِلاحِظَةٍ، ولا العيونُ له برَامِقَةٍ، أعظمُ وأَجَلُّ

وأكـــــبرُ مِن أيِّ دَليلٍ عقليٍّ أو حسِّـــــيٍّ يَدلُّ إثباتًا على وُجودِهِ، لا يُوصَفُ بـــــمَوصوفٍ ولا يُقاسُ بالحروفِ، ولا يَعلمُ ما هو إلاَّ هو، ليسَتْ لَهُ صِفَةٌ تُنَالُ، ولا حَدٌّ فَتُضرَبُ بِهِ الأمثالُ.

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد